ما ينشر في هذه الصفحة لايعبر بالضرورة عن رأي الصحيفة

الدولة الفلسطينة الموعودة... خطوة للأمام أم للخلف؟

سعادة مصطفى أرشيد

قبل أسبوع من اليوم اقترعت الجمعية العمومية للأمم المتحدة على طلب سعودي فرنسي للاعتراف بدولة فلسطينية، اقترع لصالح ذلك ١٤٢ دولة وعارضت ١٠ دول وامتنعت عن التصويت ١٢ دولة، أما فجر اليوم الثلاثاء بتوقيتنا فستصوّت الجمعية العمومية جلستها على هذا القرار الذي تبدو نتيجته

محسومة، خاصة مع تواصل الاعترافات بدولة الفلسطينيين، وكان آخرها اعتراف كلّ من انجلترا وكندا واستراليا والبرتغال، ويُفترض أن تلحق بها مجموعة أخرى من الدول، وقد وصل عدد الدول المعترفة بدولة فلسطين حتى الآن إلى ١٥٢ دولة.

أدركت حكومة (إسرائيل) مبكراً أنّ السعودية وفرنسا لن تتراجعا عن موقفهما هذا وأن البلدين قادران على حشد مجموعة كبيرة من الدول التي من الزمن ومنها ما يذهب إلى إعلان ضم الضفة الغربية لتصبح جزءاً من دولة (إسرائيل) خاصة، وهي المنطقة التي يفترض أن تقوم عليها دولة فلسطين، أما أقل ردود الفعل حدة فتلك التي اكتفت بضمّ أراضي غور الأردن الواسعة، أما بنيامين نتنياهو فقد كان رده أننا لن نقبل بوجود دولة إرهابية على أرضنا وسنعزز الاستيطان ونقيم مستوطنات جديدة على أراضي الضفة الغربية وأن الرد سيكون بعد عودته من نيويورك حيث سيلقي خطاباً في الجمعية العموميّة في يوم التصويت ويلتقي بعدها بدونالد ترامب قبل عودته إلى تل أبيب.

لكن الفلسطيني الذي تحرقه نار حرب الإبادة في غزة وتلتهم الأرض من تحته جرافات الاستيطان في الضفة الغربية وتقطع ما بين أوصالها بوابات بلغ عددها ما يزيد على ٩٠٠ بوابة منذ ٧ من تشرين الأول ٢٠٢٣، لا يبدي اهتماماً بالغاً بكل هذا الضجيج، ويتساءل هل ستؤدي هذه الإعلانات والاعترافات إلى إقامة دولة فلسطينية على جزء من أرض فلسطين الانتدابية؟ وهل رفض (إسرائيل) لهذه القرارات وتنفيذ تهديداتها بالضم سيؤدي إلى عزلتها عزلة حقيقية واعتبارها دولة مارقة وخارجة عن القانون الدولي وما يتبع ذلك من عقوبات رآها العالم تجاه دول عديدة؟ وهل الخلافات التي ستندلع بين الدول المعترفة بدولة فلسطين وحكومة (إسرائيل) ستؤدي إلى توقف الدعم العسكري وصفقات السلاح وصولاً إلى المقاطعة الشاملة في كافة المناحي؟ وما إلى ذلك من أسئلة مشروعة.

لا تحتاج الإجابة إلى تفكير طويل فنحن نراها على أرض الواقع، فلم يتبقّ مكان في الضفة الغربية يتسع لإقامة دولة حتى قبل عملية الضم التي يتحدثون عنها، والاستيطان يتسع ويأخذ في كل يوم أراضي جديدة، والشعب الفلسطيني ومعه أبناء الأمة يعرفون طبيعة العلاقة العضوية بين دولة الاحتلال ومن أقامها منذ سبعة عقود ورعاها ولا يزال، وأن هذا الاعتراف لن يوقف عمليات الإبادة في غزة ولا مشاريع ضم الضفة الغربية والتهام أراضيها بإقامة عشرات النقاط الاستيطانية الجديدة وفي خلق الظروف الحياتية الصعبة التي دفعت عشرات الآلاف من شبابها وفي بعض التقديرات مئات الآلاف للهجرة إلى جهات الدنيا الأربع.

يدرك الفلسطيني الحزين أنّ هذا الاعتراف لا يعبّر عن صحوة ضمير سعودية – عربية أو فرنسية – غربية وإنما هو ليس إلا وصفة مسمومة لإذكاء نار الخلاف الفلسطيني – الفلسطيني، وجعل المسألة مسألة صراع داخلي. فالاعتراف هذا وإنْ كان لا قيمة له في الجغرافيا ولا يلزم (إسرائيل) بشيء لا بل يحرّضها على مزيد من العدوانيّة، ولكنه ملزم للفلسطيني الذي عليه أن يقوم بتغيير المناهج المدرسية بما يتوافق مع الرؤية الغربية ـ الإسرائيلية – الإبراهيمية، وأن يحفظ أمن أعدائه بالتزامه بعقيدة أمنية ترى في الدفاع عن حقوقه ضرراً له وخسارة، وأن يقبل شكلاً لا فعلاً بدولة منزوعة السلاح (لن تقام) لا بل ومنزوعة من دسم السيادة الحقيقيّة والأهم سعودياً وفرنسياً وغربياً أن لا مكان للمقاومة في هذه الدولة الوهمية.

ألا يتناقض كلّ ذلك مع حق تقرير المصير وحق الشعوب بمقاومة الاحتلال؟ وهل تستطيع هذه الدولة المطالبة بحق عودة أو قدس أو سيطرة على الحدود أو مصادر المياه؟ وهل ستبقى المستوطنات بنشاطها العدواني، إنها أسئلة قد تبدو غير ضرورية طالما أن الدولة الفلسطينية التي يتحدثون عنها لن تقوم.

من الطوق الناري إلى التهجير..كيف يمهّد الاحتلال لاحتلال غزّة والمقاومة تترقب

محمد الأيوبي

منذ ما يقارب عامين، تشنّ «إسرائيل» حرب إبادة جماعية غير مسبوقة على قطاع غزّة، حربًا ليست مجرد عملية عسكرية محدودة أو ردًا على هجوم مفاجئ، بل هي مشروع إستراتيجي متكامل يهدف إلى إعادة صياغة الجغرافيا والديموغرافيا الفلسطينية وفق مقاييس الاستعمار الاستيطاني. وفي قلب هذه الإستراتيجية، تحتلّ مدينة غزّة موقعًا رمزيًا وميدانيًا أساسيًا، بحيث تسعى «إسرائيل»، عبر عملية «عربات جدعون ٢»، إلى تحويلها إلى أنقاض فارغة من سكانها، مقدمةً نموذجًا جديدًا في حروب التهجير الحديثة: حرب تبدأ بالطوق الناري، وتنتهي بالتفريغ البشري الشامل.

لكن خلف هذا المشهد الدموي الذي يقدَّم بلسان «الناطق العسكري الإسرائيلي» باعتباره «عمليات عسكرية ضرورية»، يكمن نظام دولي يتواطأ بالصمت أو المشاركة، وتتحرك فيه واشنطن كراعٍ سياسي وعسكري مباشر. فما يجرِّي في غزّة ليس استثناءً، بل هو امتداد لنمط تاريخي من الحروب التي يقودها الغرب أو يباركها، من فيتنام إلى العراق وأفغانستان، مرورًا ببوغسلافيا وليبيا.

الطوق الناري: الإبادة كمرحلة تمهيد ية

المرحلة الأولى من الهجوم على غزّة لم تكن تقدمًا بريًا منظمًا، بل قصفًا شاملًا ومكثفًا شمل كلّ أحياء المدينة تقريبًا: الزيتون، الصبرة، الشجاعية، الشيخ رضوان، الدرج، التفاح، تل الهوا، وحتّى الشاطئ. الهدف المباشر لم يكن «تحييد المقاومة» كما يزعم الاحتلال، بل فرض طوق ناري يمنع الحركة ويجبر المدنيين على النزوح.

إن هذه الإستراتيجية ليست جديدة؛ هي ذاتها التي استخدمها الاستعمار الفرنسي في الجزائر، والولايات المتحدة في فيتنام، و«إسرائيل» نفسها في جنوب لبنان. الآلاف من النازحين الذين يهربون من مدينة تحوّلت إلى جحيم من الركام. هذه ليست «أضرارًا جانبية» كما يصفها الخطاب الغربي، بل هي هدف في حد ذاته: إفراغ غزّة من سكانها.

بطء التقدم البري: خوف الاحتلال وحسابات المقاومة

منذ بدء العملية البرية، لم يسجل أي اختراق حقيقي لجيش الاحتلال في عمق مدينة غزّة. الآليات تتمركز عند ثلاث جبهات رئيسية: شمال غربي المدينة (السودانية والتوام)، شمالها الشرقي (الشيخ رضوان والصفطاوي)، وجنوبها (تل الهوا والكلية الجامعية). لكنّها لم تتجاوز حتّى الآن الخطوط الأولى.

هذا البطء لا يعكس «حكمة عسكرية»، بل أزمة وجودية يعيشها الجيش الإسرائيلي». فالمقاومة لم ترد بعد، ليس لأنها غائبة، بل لأنها تترقب لحظة الاشتباك المناسبة. في هذه الأثناء، يتصرف الاحتلال وكأنه يقاتل «أشباحًا»: يقصف أبراجًا خاوية ويهدم مربعات سكنية فارغة، فيما يخشى على جنوده من أي كمين أو عملية أسر.

هذا الخوف «الإسرائيلي» مشروع؛

فالمقاومة الفلسطينية تمتلك خبرة طويلة في حروب المدن، من الشجاعية إلى بيت حانون. وكلّ محاولة توغل قد تتحول إلى كارثة ميدانية، كما حدث في تجارب سابقة عندما دُمّرت دبابات «الميركافا» وأُسر جنود في عمليات نوعية. ولذلك، يفضّل الجيش سياسة «الأرض المحروقة» قبل أن يغامر بالتقدم.

التهجير القسري: جوهر الإستراتيجية

إن الهدف الرئيسي من هذه العملية هو تهجير كلّ سكان شمال القطاع، من محور «نتساريم» حتّى بيت حانون وبيت لاهيا. نحن نتحدث عن شريط لا يتجاوز طوله ١٠ إلى ١٢ كيلومترًا، لكنّه يمثل العمود الفقري لقطاع غزّة. السيطرة عليه تعني عزل الشمال عن الجنوب وتحويل غزّة إلى جيوب محاصرة قابلة للتفكيك.

هذا المخطّط يكرّر بدقة ما فعلته «إسرائيل» في النكبة عام ١٩٤٨ وفي النكسة عام ١٩٦٧: التهجير كأداة مركزية لبناء «إسرائيل الكبرى». الجديد اليوم أن العملية تتم في ظل تواطؤ عالمي كامل وتظهر الطوابير الطويلة للنازحين على شاشات التلفزة، «وجوههم متعبة، وأصواتهم تتردّد: نحن لا نعلم إلى أين نذهب»، بينما تُختزل في الخطاب الغربي تحت عنوان «المساعدات الإنسانية» التي تُلقى من الطائرات وكأنها أوراق دعائية.

لكن التهجير ليس مجرد وسيلة؛ هو الغاية بحد ذاتها. «فـ»إسرائيل لا تسعى فقط لتدمير منازل الفلسطينيين، بل لإعادة تشكيل الخريطة السكانية بما يتيح إقامة مستوطنات جديدة مكان الأحياء المدمرة. وهنا يصبح التهجير حلقة في مشروع استعماري استيطاني طويل الأمد.

نتنياهو وصورة النصر المستحيلة

القائد السابق لفرقة غزّة في «الجيش الإسرائيلي»، يسرائيل زيف، صرّح بأن نتنياهو يبحث عن «صورة نصر غير موجودة». هذا التصريح يعكس أزمة «القيادة «الإسرائيلية»: فالحرب، رغم كلّ حجم الدمار والقتل، لم تحقق أي هدف سياسي أو عسكري.

نتنياهو، المطلوب أمام المحكمة الجنائية الدولية، يقدّم نفسه كـ»رجل أمن» يحمي «إسرائيل»، بينما يقودها عمليًا إلى عزلة دولية وانهيار أخلاقي. إعلانه الأخير عن تحويل «إسرائيل» إلى «مدينة إسبرطة» وأننا في حالة «عزلة» هو اعتراف ضمني بأنه يجرّ «المجتمع الإسرائيلي» إلى حالة حرب دائمة، قائمة على العسكرة والانغلاق الاقتصادي. إنها ليست سياسة دفاعية، بل وصفة لانتحار طويل الأمد.

إنه نموذج «القائد الذي يهرب إلى الأمام»: يضحي بجنوده، يقتل المدنيين، يهدّد مستقبل أجيال كاملة من الإسرائيليين، وكلّ ذلك من أجل بقائه في الحكم وتجنّب السقوط أمام المحاكم.

الغرب وشراكة الجريمة

ما كان لهذه الحرب أن تستمر يومًا واحدًا لولا الدعم الأميركي المطلق. واشنطن لا تكتفي بتزويد «إسرائيل» بالسلاح والذخيرة، بل تغطيها دبلوماسيًا في مجلس الأمن وتقدّم لها المبررات الأخلاقية. وهنا تكمن المعضلة الكبرى: إن ما يحدث في غزّة لا يفضح «إسرائيل» وحدها، بل يفضح النظام العالمي الذي يقوده الغرب.

الصمت الأوروبي، والاكتفاء ببيانات إنسانية خجولة، يكشف أن «القيم الديمقراطية» ليست سوى غطاء أيديولوجي. فحين يتعلق الأمر بفلسطين، تختفي مبادئ حقوق الإنسان والعدالة الدولية، ويحل محلها منطق القوّة العارية.

هذه الحرب، إذًا، ليست فقط حرب «إسرائيل» على غزّة؛ إنها حرب الغرب الرسمي على فكرة الحرية في العالم الثالث. تمامًا كما كانت في الجزائر وفيتنام والعراق.

المقاومة: الترقب كخيار إستراتيجي

اللافت أن المقاومة الفلسطينية لم تدخل بعد بثقلها في مواجهة الاجتياح البري. هذا التريث ليس ضعفًا، بل هي تكتيك محسوب. فالاشتباك المبكر قد يستهلك القدرات في معارك جانبية، بينما الهدف الحقيقي هو استنزاف الاحتلال على المدى الطويل.

المقاومة تراهن على عاملين: أولهما هشاشة «الجيش الإسرائيلي» الذي يعاني نقصًا في الجنود والمعدات (٣٠٪ من القوّة المطلوبة غير متوفرة). وثانيهما الانقسام الداخلي في «إسرائيل» بين قيادة سياسية تبحث عن نصر إعلامي وقيادة عسكرية تدرك استحالة ذلك.

في هذه المعادلة، يصبح الزمن في صالح المقاومة. فكلّ يوم يمر بلا «نصر إسرائيلي» هو يوم إضافي يكشف عجز الاحتلال ويعمّق أزمته أمام الرأي العام الداخلي والخارجي.

غزّة كرمز عالمي

ما يجري في غزّة اليوم ليس مجرد فصل في الصراع «الفلسطيني الإسرائيلي»، بل لحظة كاشفة لطبيعة النظام الدولي كله. من الطوق الناري إلى التهجير، من البحث عن صورة نصر إلى الانخراط في إبادة جماعية، تتجلى أمامنا صورة استعمارية كلاسيكية يُعاد إنتاجها في القرن الحادي والعشرين تحت غطاء «الأمن» و«مكافحة الإرهاب".

لكن كما علمنا التاريخ، فإن الشعوب التي تُحاصر وتُهجّر لا تُمحى من الوجود. غزّة، التي قاومت على مدى عقود رغم كلّ الحروب والحصار، ليست مجرد جغرافيا، بل رمز لإرادة الصمود. والمقاومة التي تترقب اليوم، ستجد لحظتها المناسبة لتكتب فصلًا جديدًا في سجل المواجهة.

في النهاية، قد تنجح «إسرائيل» في تدمير المدينة كاملًا، لكن ما لن تستطيع فعله هو محو القضية. فغزّة، بدمها وركامها وناسها، ستظل المرآة التي تعكس عجز الغرب الأخلاقي.

يوم لفلسطين

– ليس الوقت لمناقشة خلفيات الحراك السياسي الدولي تحت شعار حل الدولتين، ولا ما يُخفيه من اعتراف غير مشروع بكيان الاحتلال، وتنازل عن حقوق غير قابلة للتفاوض والتنازل للشعب الفلسطيني بكامل أرضه التاريخية، وليس الوقت لمناقشة مدى واقعية هذا الحل وإمكانية تطبيقه، أو فرص قيام دولة فلسطينية عبر الطرق الدبلوماسية، وكيان الاحتلال قام تحت هذا الشعر بنهش جغرافيا القدس والضفة الغربية وصولاً للضم الكامل والحصول على مباركة ومشاركة أميركيّة، والحماية الكاملة بحق الفيتو الأميركي والعقوبات الأميركية المتاحة دائماً لمنع أي حل من المرور عبر المؤسسات الدولية، كما يجري دائماً في مجلس الأمن الدولي، وكما جرى مؤخراً مع قضاة المحاكم الدولية.

– هذا يوم لفلسطين، ويحق للفلسطينيين أن يحتفلوا بإنجاز نصر سياسيّ كبير على المشروع الصهيونيّ، لأن الدول التي تعترف بالدولة الفلسطينية هي في كثير من الحالات التي قدّمت دعماً استثنائياً لكيان الاحتلال حتى تاريخ قريب، ومهما ربطت هذه الدول بين اعترافها بدولة فلسطين ودعواتها للقضاء على المقاومة وإدانتها لطوفان الأقصى، فهي تعلم والعالم كله يعلم، أن هذا الاعتراف ما كان ليكون لولا المقاومة ولولا طوفان الأقصى.

– منذ طوفان الأقصى وفي شهور حرب الإبادة التي يشنّها كيان الاحتلال في شعب

فلسطين استعادت القضية الفلسطينية حضورها بفضل المقاومة ودماء الفلسطينيين وتضحياتهم وصمودهم، وسقوط ورقة التوت عن صورة الوحش الذي يمثله كيان الاحتلال والذي كان يحظى بعمليات تجميل وتزوير لتقديمه كياناً حضارياً ديمقراطياً متمدناً، وقد أتيح لشعوب العالم أن تتعرّف في زمن قياسيّ على حقيقة اسمها الحق الفلسطيني وحقيقة موازية اسمها الكيان الإجرامي المتوحش الذي يحتلّ فلسطين، وخرجت الشعوب في انتفاضة ضميريّة متواصلة تهتف لفلسطين حرة، حتى أرغمت حكوماتها على هذا الحد من الاستجابة، وبقدر ما يمثل هذا الاعتراف بالدولة الفلسطينية إنجازاً لشعوب العالم، فهو إنجاز للشعب الفلسطيني ومقاومته وتضحياته العظيمة المستمرة.

– يكفي أن ننتبه إلى أن الحرب الإجرامية التي يشنّها كيان الاحتلال على الشعب الفلسطيني تحمل رسالة سياسيّة عنوانها، لا وجود لشعب فلسطينيّ ولا لقضية فلسطينيّة، وإن وجدا فإن القوة هي الطريق الوحيد للتعامل معهما حتى الإبادة، ويأتي هذا الاعتراف ليقول إن الكيان قد خسر المعركة السياسية وإن العالم يقف موحداً ليقول إن فلسطين هي أرض موجودة بهذا الاسم لدولة وإنها تعود لشعب اسمه الشعب الفلسطيني يملك حق إقامة دولته، مهما كان هذا النص ضعيفاً ومجتزأً باعتماده لدولة فلسطين جزءاً من أرض فلسطين فقط.

– بالمقارنة مع لحظة تاريخيّة مشابهة عام ١٩٧٤ عندما منحت منظمة التحرير الفلسطينية منصة الأمم المتحدة للتحدّث إلى العالم، وقد كان ذلك في ذروة صعود حركة النضال الوطني الفلسطيني، فإن ما يجري اليوم أكبر بكثير وأهم بكثير وأعظم بكثير، من زاوية الاعتراف بالحق، ومن زاوية حجم الخسارة اللاحقة بالكيان، علماً أن هذا يجري كما يفترض في أسوأ ظروف النضال الفلسطيني، وهذا معناه أن الحديث عن هزيمة المقاومة الفلسطينية مجرد خداع بصريّ، إذ يكفي التمعّن بما يجري لمعرفة موازين القوى الحقيقيّة التي أنتجها طوفان الأقصى وأعاد إنتاجها صمود المقاومة وشعبها بوجه حرب الإبادة الإجرامية المتمادية.

– من حق الفلسطينيين الاحتفال لأن هذا يوم لفلسطين، بكل معنى الكلمة.

البناء